

الوسطية في الأدب الإسلامي

تأليف: د. وليد قصاب

الوسطية، وتطبيقاته في الإسلام الذي ينبثق منه الأدب الإسلامي، ويتسم بسماته العديدة، ومنها سمة الوسطية.

يقول المؤلف في المقدمة مبينا أهمية انبثاق الدعوة إلى الأدب الإسلامي: «وفي ضوء ما أصاب الأدب العربي الحديث من تغرب وهجانة تحدث عنها كثير من الدارسين، بسبب تقليد المذاهب الغربية،

كان لا بد من مراجعة وتصحيح لمسيرة هذا الأدب،

كان لابد من دعوة تعود به إلى جادة الأصالة، وتحفظ عليه ماء وجهه الذي أريق على أعتاب فكر الآخرين وأديهم.. وتمثل ذلك في الدعوة إلى الأدب الإسلامي». (ص ١٤)

ويأتي الحديث عن الوسطية في أقوال بعض النقاد ألصق بموضوع الكتاب المباشر، ذلك أن النقد يسير خلف الأدب ويتبع أثره، ويصدر أحكامه على النص مؤيدا ومعارضاً، وقد يتجاوزوه إلى

صاحبه أحيانا، وليس له من ضابط يشكم جماعه إلا منهج الوسطية.

ويدخل المؤلف إلى صلب الموضوع فيتحدث عن «الوسطية في منهج الأدب الإسلامي» من خلال خطة الثنائيات التي تحكم الإبداع الأدبي، فتحدث في الفصل الأول عن: ثنائية الشكل والمضمون، والتجاذب بين المتطرفين إلى الشكل، والمتطرفين إلى المضمون،

الوسطية مركب النجاة في الطوفان الذي يهددنا في هذا العالم، ورغم كثرة الداعين إليها، والمدعين لها؛ فإن قلة من الناس ربما يكونون على جدد الوسطية التي أرادها الله سبحانه لنا؛ إذ قال في كتابه العزيز: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

ولعل من طرائف المؤلفات التي طرقت هذا

الموضوع كتاب «الوسطية في منهج الأدب الإسلامي» للدكتور وليد قصاب، والحديث عن المنهج هو الضابط للموضوع، أما مفردات الأدب الإسلامي فإنها تختلف من أديب إلى آخر، وعند الأديب نفسه من نص إلى نص، أو من فن أدبي إلى فن أدبي آخر، فالأدب النازع بطبيعته إلى الخيال، والمشحون بالعاطفة، يغال صاحبه مرة بعد مرة، فيند ويشطح إذا لم يكن دائم المراقبة لنفسه والمراجعة لما يكتب.

وفي هذه الصفحة المتاحة من مجلة الأدب الإسلامي لعرض كتاب في هذا الموضوع نلم بعموميته الدالة على تفاصيلها من خلال العناوين الرئيسة بين دفتيه. فبعد التصدير والمقدمة والتمهيد تحدث المؤلف عن معنى الوسطية في اللغة، ثم أعطى لمحة عنها في القرآن الكريم، وفي الحديث الشريف، وفي أقوال بعض الصحابة والفقهاء، وهذا كله تأصيل لمفهوم



ليعطينا وسطية المنهج عند الذين جمعوا بين الشكل والمضمون.

وفي الفصل الثاني تحدث عن ثنائية الفن والالتزام، بتفصيل أكثر في العناوين الفرعية التي شملت العناوين الآتية: نظريتا الطبيعة والوظيفة الشكلية والخلقية، قدم النظريتين، سبق النظرية الخلقية، الشكلية والخلقية في النقد الغربي، وظيفة الشعر، نقد المعاني، الضبط العقدي لأغراض الشعر، عدم رواية ما صادم العقيدة، إسقاط منزلة الشاعر بسبب عقيدته، إثثار الصدق.

وفي الفصل الثالث تحدث المؤلف عن تجاذب آخر يواكب الأجيال وهو: ثنائية القديم والحديث، وضم هذا الفصل العناوين الآتية: القديم والحديث في التراث العربي، أصحاب القديم، أصحاب الجديد، أصحاب الوسطية، القديم والحديث في الفكر العربي، الجموح في التجديد، الحداثة وتغريب الأدب، الوسطية الإسلامية في قضية القديم والحديث، من ملامح الوسطية الإسلامية في إشكالية القديم والحديث.

في هذه الفصول الثلاثة دار الحديث عن «الوسطية في منهج الأدب الإسلامي» في أدبنا العربي عامة، والأدب الإسلامي منه خاصة، وهو حديث يدور فيما عندنا، ولأن ذلك غير كاف بسبب تأثر أدبنا الحديث بالآداب العالمية عموماً، وبالفكر منه خصوصاً؛ فقد جعل الفصل الرابع الأخير من الكتاب عن: ثنائيات المذاهب الأدبية الغربية. وجاء في أربعة محاور بعد حديثه عن ارتباط المذاهب الأدبية بالعقائد والفلسفات، وهي: ثنائية العقل والعاطفة، ثنائية الواقع والمثال، وثنائية الشعور واللاشعور، وثنائية الداخل والخارج. وتحدث في كل محور عن التصور الإسلامي له.

إن فكرة الثنائيات هذه التي بنى عليها المؤلف د. وليد قصاب كتابه، هي فكرة أصيلة في الحياة نفسها أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (الذاريات: ٤٩)، ولعل هذه الزوجية الثنائية هي المقصودة أيضاً في الآية الأخرى: (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ) (الحجر: ١٩)، ومن هنا نلاحظ أن هذه المنهجية ليست نظرية اجتهادية، بل هي مرتبطة بأصل الخلق كله، فطرة فطر الله الخلق عليها، لتعتدل الحياة التي نخترها لأنفسنا حسب الميزان الذي وضعه الله سبحانه في خلقه.

وقد حقق المؤلف في عرضه لمحاور الكتاب ما ذكره في المقدمة إذ يقول: «وهذه الوسطية الأدبية الإسلامية تعني جمع وجوه الحسن كلها من عناصر العمل الأدبي المتميز، لا يفرط بأي عنصر من هذه العناصر، لأن لكل منها وظيفته وجماله وتأثيره، وحضوره يحفظ على العمل الأدبي توازنه؛ إذ يهيئ له المتعة والفائدة، والجمال والالتزام، الإبهار والهدف». (ص ١٨)

وبلخص المؤلف في خاتمة كتابه ما قاله في المقدمة وما عرضه في ثنياه فيقول: «إن منهج الأدب الإسلامي يقوم على النظر إلى هذه الثنائيات على أنه يكمل بعضها بعضاً، لا على أنها متناقضة، متافرة، كما ينظر إليها في الفكر الغربي، وأنه يمكن الاستفادة من كل وجه إيجابي تحمله أية واحدة منها، لتشكيل رؤية متوازنة تقوم على الاعتدال والقصد، وتبتعد عن الإفراط والتفريط». (ص ١٨٣)

هذا الكتاب يستحق القراءة، وأن يؤلى مزيداً من العناية لأهمية موضوعه لنا جميعاً، وللدأب خاصة. وقد صدرت الطبعة الأولى عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، في سلسلة روافد، عام ١٤٣٣ هـ، الموافق ٢٠١٢ م. ■